عرفات كقائد، "فتح" كتنظيم، ومسيرة الثورة الفلسطينية في حوار صريح مع شفيق الحوت*

أجرى الحوار: **أحمد خليفة ومحمود سويد**
حرره وأعده للنشر: **أحمد خليفة**

أحمد خليفة: أستاذ شفيق، أهلاً وسهلاً. ما نرجو أن نسمعه منك في هذا اللقاء هو تقويم لشخصية أبو عمار كقائد للثورة الفلسطينية وزعيم سياسي فيها، وكذلك تقويم لمسيرة الثورة خلال الأعوام الأربعين الماضية، ومن ثم ننتقل إلى الحاضر، إلى الوضع الفلسطيني بعد عرفات، وما يمكن أن تؤول إليه الأمور في الساحة الفلسطينية في ظل القيادة الجديدة. نبدأ بعرفات. كشخص رافقته في النضال فترة طويلة، وخصوصاً خلال الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرت ١٥ عاماً، وقبل الحرب وبعدها في مختلف مراحل الثورة الفلسطينية، ما هي نقاط قوته ونقاط ضعفه؟ نقاط قوته التي مكنته من تزعم "فتح"، ثم تزعم منظمة التحرير وتقريباً الحركة الوطنية الفلسطينية كلها، وعلى أساس أي إنجازات صار رمزاً لفلسطين. كيف وصل إلى هذه المكانة واحتفظ بها حتى وفاته على الرغم من وجود أشخاص أقوياء في قيادة "فتح" عند تأسيسها ولفترة طويلة لاحقاً، ووجود فصائل كانت قوية الشوكة في حقبة ازدهار الثورة؟ وإلى جانب ذلك، ما هي نقاط ضعفه وإخفاقاته، وإلى أي حد يمكن اعتبار هذه مسؤولة عن تخلف الثورة الفلسطينية عن إنجاز ما كان يرجى أن تنجزه، إذ تبدو الأمور الآن وكأننا واقفون على رمال متحركة؟

حقائق لا بد من الاعتراف بها

شفيق الحوت: فيما يتعلق بتقويم شخصية ياسر عرفات، وبغض النظر عن أي موقف نقدي من هذا الرجل، لا بد من الإقرار بعدد من الحقائق الموضوعية، أولها أنه احتل موقعاً مميزاً في مسيرة النضال الوطني الفلسطيني طوال نحو أربعين عاماً، وكان إلى حد كبير القائد بلا منازع لهذا الشعب الفلسطيني. ومن هذه الحقائق الموضوعية كذلك أن ياسر عرفات استطاع على المستوى القومي أن يستعيد لفلسطين موقعها في الأسرة العربية، فكان لا يقل عن أي حاكم من حكام العرب، على الرغم من أنه كان حاكماً بلا دولة وبلا وطن. وقد مر على الحكام العرب حينٌ من الدهر كان فيه كل واحد منهم يشعر بأن ياسر عرفات يشاركه جزءاً من سيادته على

(*) تمت المقابلة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، بتاريخ ٢/١٢/٢٠٠٤.

شعبه. طبعاً قد يقول قائل، ويكون على حق، إن السبب ليس بالضرورة شخص ياسر عرفات، وإنما الموقع الذي كان يشغله كقائد لقضية لها قدسيتها، ولها خصوصيتها في الوطن العربي وفي العالم الإسلامي. كما أن من الضروري الإقرار بأن أبو عمار، على المستوى الدولي، صار جزءاً من تاريخ حركة التحرر العالمي، يضاف اسمه إلى أسماء كثيرين ممن تميزوا في القرن العشرين كأبطال لشعوبهم وكقادة ثورات من حسن حظهم أنها انتهت بالنصر جميعاً: في فيتنام، وفي إفريقيا، وفي أميركا اللاتينية، وفي أماكن أُخرى باستثناء فلسطين طبعاً؛ وهذا موضوع آخر. هذه حقائق لا يجوز أن نناقش فيها، فهي حقائق موضوعية شئنا أم أبينا. وإن كان هناك من مكابر، فالأيام القليلة التي عشناها بعد رحيل أبو عمار تشهد إلى حد كبير على شعبية هذا الرجل، فلسطينياً وعربياً ودولياً. أمّا وقد قلنا هذا، فنأتي إلى موضوع آخر هو النظرة النقدية إلى هذا الزعيم. لكن قبل الشروع في الحديث عن ذلك، لا بد من أن أسجل حقيقة موضوعية أُخرى هي أن قضية فلسطين قضية معقدة ومركّبة وصعبة، وأكاد أقول إنها إحدى أكثر قضايا العصر تعقيداً وتركيباً وصعوبة وعصياناً على الحل، وذلك لما لها من أبعاد يتقاطع فيها المستويان الإقليمي والدولي. فقضية فلسطين تعني مجابهة أحد أخطر التحالفات التي شهدتها الكرة الأرضية، التحالف الصهيوني ـ الإمبريالي. منذ نشأت قضية فلسطين والحركة الصهيونية على تحالف مع فريق استعماري محدد، الأمر الذي يجعل موازين القوى تميل بشكل دائم إلى مصلحتها. وقد يكون أحد أسباب أهمية ياسر عرفات، أو أهمية أي إنسان يقود القضية الفلسطينية، أنه يتحدى قوى بمثل هذا المقدار من الثقل. وكما قيل مرة، ربما في موضع السخرية أو الإقرار بالحقيقة، إنه لو لم يكن الإسرائيليون هم خصومنا لما أشار الإعلام الغربي إلى وجودنا، أو حتى إلى اسمنا.

وقبل الخوض في عملية نقد وتقويم شخصية ياسر عرفات وأدائه، لا بد من إشارة عابرة إلى الزعيمين اللذين سبقاه في قيادة شعب فلسطين، وهما الحاج أمين الحسيني وأحمد الشقيري. فالرجلان، وهما من أبناء الجيل نفسه تقريباً، اعتمدا الطريقة القبلية التقليدية في القيادة، التي لم تعد صالحة للممارسة بعد نكبة ١٩٤٨ وبعد انتشار الأحزاب والمنظمات الشعبية التي كانت تتطلع إلى خلق قيادة تمثل الجيل الجديد حق تمثيل، وتعمل على إيجاد الأطر القادرة على استيعاب قوى الجماهير وتنظيمها.

ومن المؤسف القول إن قيادة "فتح" وتنظيمها، وكذلك جل قيادات التنظيمات الأُخرى، لم تختلف كثيراً عن القيادات التقليدية.

أمّا أبو عمار، فيمكن تقويم دوره وما له وما عليه من خلال الأساليب التي استخدمها للوصول إلى الزعامة، ثم احتكارها.

ما له وما عليه
في الطريق إلى الزعامة الأولى

بدأت "فتح" تكبر وتقوى، ومكانة أبو عمار تترسخ وتعلو بالتدريج بعد نكسة ١٩٦٧، إذ استطاع أن يكون رجل إعلام من طراز هائل. أبو عمار رجل إعلام أكثر مما هو رجل عسكري. فقد استطاع بعد تلك النكسة، وبالتحديد ابتداء من معركة الكرامة سنة ١٩٦٨، أن يكتسح الساحة الفلسطينية بالإعلام العفوي. هل رأيت في حياتك قائداً يمشي في الشوارع حاملاً بندقية؟ أفهم أن يحمل مسدساً، لكن أبو عمار كان يمشي في الشوارع حاملاً بندقية. الناس تراه في الشارع وتقول بإعجاب: هذا رجل، هذا زعيم! فهو كان قريباً من الشعب وعفوية الشعب. وقد ثبت فيما بعد أنه كان بعيد النظر في استقطاب الناس بالتشبه

بهم، وبرفع شعاراتهم، أكثر من تثقيفهم وتوجيههم التوجيه اللازم. أبو عمار جاء إلى الساحة، بينما كان كثيرون منشغلين بالأيديولوجيات، وقال: قمنا بثورة من دون نظرية، فتعالوا نبحث لها عن نظرية. إخوتنا في حركة القوميين العرب كانوا منشغلين بأن "عبد الناصر ما زبط، يمكن ماركس بيزبط." أي أنه بينما كان كثيرون منشغلين بألفاظ ثورية، كان ياسر عرفات يتعامل مع الراهن. هل هذه حسنة، أم سيئة؟ قد تبدو حسنة، لكنها في رأيي كانت فعلاً سيئة. كان أبو عمار يعطي زاداً يومياً، كان حريصاً على أن يكون هناك كل يوم على مائدته زعتر وزيتون وجبنة، إلخ. لكن ما فكر في أن يزرع زيتوناً، ما فكر في أن يقيم مزرعة ألبان، ما فكر في أن يضع مشاريع بعيدة المدى. لكن النقطة الأساسية السلبية في ياسر عرفات، التي يجمع كثيرون تقريباً عليها، هي أنه كان منذ البداية، عن وعي أو عن غريزة، حريصاً على أن يكون ممسكاً بالخيوط كلها في يده. ومنذ البداية، عندما كان ينام كل رفاقه التاريخيين في حركة "فتح"، كان أبو عمار يبقى سهراناً يفكر إن كان نسي شيئاً، أو في ما يجب أن يفعل غداً أو بعد غد، أو في كيف يجب أن يترتب هذا الموضوع أو ذاك. كان محترفاً منذ البداية، وكان يسعى ليصبح رقم واحد؛ وهذا صار تحصيل حاصل فيما بعد. في البداية كنت أستغرب بعض اهتماماته، مثلاً يكون هناك انتخابات اتحاد طلاب فأجده معنياً بها كأنه طالب. لكن أدركت فيما بعد أنه قد يحتاج إلى هذا الاتحاد، ويريد أن يكون ضامناً واحداً وخمسين في المئة من الأصوات من أجل لحظة من اللحظات، في ميدان من الميادين، حيث التباينات والخصومات داخل "فتح" أو مع الفصائل الأُخرى. مختصر الكلام أنه تمكن في النهاية من أن يجمع كل الخيوط في يده، فأصبح هو القائد السياسي، وأصبح هو القائد العسكري، وأصبح هو أمين الصندوق، وهو المرجع والوالد و"الختيار" لجماهير الناس. أبواب بيوت الفصائل الأُخرى، وحتى أبواب بيوت زملائه في حركة "فتح"، كانت تغلق أحياناً أمام الناس، لكن بيت ياسر عرفات كان مفتوحاً دائماً. ومن كان يريد حاجة شخصية كان لا يجد غير أبو عمار. صحيح أن المحتاج كان قادراً على أن يذهب إلى الهيئة الفلانية لـ "فتح"، لكن لا بد من توقيع ياسر عرفات، فصارت الناس تعرف أنه حتى أيضاً فيما يتعلق باليومي لا بد من ياسر عرفات. كذلك أدركت الفصائل والقيادات الأُخرى أن التعامل كي يتم يجب أن يكون مع ياسر عرفات. كثيرون حاولوا أن يقيموا محاور مع أبو إياد، مع أبو صالح، مع أبو فلان، على أمل أن يأخذوا من "فتح" المساعدات عن طريق هذه القناة أو تلك، لكنها كلها فشلت، ولم تنجح إلاّ القناة المفتوحة مباشرة مع أبو عمار.

محمود سويد: على مستوى "فتح" وعلى مستوى منظمة التحرير، كمؤسستين، ماذا كان دور القادة الآخرين والفصائل؟ في "فتح" كان هناك أشخاص تاريخيون مثله وقادرون على الاضطلاع بمسؤوليات قيادية وأدوار كبيرة، أبو جهاد وأبو إياد وغيرهما، هل كان عرفات الأول بين آخرين كانوا هم أيضاً يشاركون في اتخاذ القرار، أم أنه كان الوحيد لا الأول فقط؟ وعلى صعيد المنظمة، التي كانت الفصائل موجودة فيها بقوة، هل كان هناك شكل تنظيمي ما لقيادة جماعية أم كانت القيادة لـ "فتح" وحدها؟

أحمد خليفة: استكمالاً للسؤال، هل كان هناك داخل "فتح" نفسها، قبل أوسلو، مراكز قوى؟ أنت أشرت إلى أن كثيرين من قادة الفصائل حاولوا أن يقيموا محاور مع أبو إياد أو أبو صالح أو غيرهما، لكنهم فشلوا. هل كان هؤلاء القادة مراكز قوى يحسب أبو عمار حسابها، أم - كما قال محمود - كان هو صاحب القرار الأوحد؟ هل كان وقتها صاحب القرار كما صار بعد أوسلو؟

شفيق الحوت: عندما استقال الشقيري من رئاسة منظمة التحرير كان هناك موقفان في "فتح": ناس أيدوا الدخول في منظمة التحرير الفلسطينية واستلامها، وناس قالوا: كلا، منظمة التحرير هذه تمثل السياسات الرسمية وجامعة الدول العربية،

وتريد أن تصفي القضية! ياسر عرفات كان بعيد النظر فخاض معركة داخل "فتح"، وفي النهاية انتصر ودخل منظمة التحرير. هنا استفاد ياسر عرفات وتقدم على جميع زملائه في حركة "فتح"، إذ أصبح قائداً لمنظمة التحرير الفلسطينية، إضافة إلى موقعه الأول في "فتح". وصار إذا انزعج من "فتح"، فعنده المنظمة وإمكاناتها مالياً وسياسياً وإعلامياً، والعكس بالعكس. "فتح" كانت حركة متكاملة، ومنظمة التحرير كانت أيضاً حركة متكاملة، وكانت الاثنتان في متناوله، يستعين بهذه على تلك وبالعكس، بل حتى إنه خلط المال وأصبح هناك حساب ثالث، لا هو حساب "فتح"، ولا هو حساب منظمة التحرير، من دون أن يعرف أحد كيف كان ياسر عرفات يتصرف فيه.

بالنسبة إلى القادة الآخرين ومراكز القوى في "فتح" والفصائل، سأذكر مثلين من التجربة الشخصية. ذات مرة كان الجو متوتراً جداً بين أبو إياد وأبو عمار لسبب من الأسباب، وشاهدي على هذا الحدث شاعرنا محمود درويش، وكان ذلك في تونس. بدأ أبو إياد يشكو لي وينتقد أبو عمار ومسيرته وأداءه، وأنا ساكت إلى أن قلت له: يا أبو إياد أنت معروف في الخارج بأنك الرجل الثاني في "فتح"، وهناك وهم أنك زعيم أيلول الأسود ورجل الإرهاب الكبير المخيف في حركة "فتح"، وأنت، وأنت، إلخ. أمّا أنا، فرجل مستقل، ليس لديّ تنظيم، ولا يدعمني نظام، فكيف تشكوه إليّ؟! أنا المفروض، عندما أرى عيباً في أبو عمار، أن أشكوه إليك باعتبارك زميله ورفيقه وعضو لجنة مركزية، كي تلفت نظره أو تصححه أو حتى "تشيله". عندئذ رفع صلاح [خلف]، يرحمه الله، إصبعه إلى السماء وقال: لن يصلحه غير الذي خلقه! مثل آخر: لمّا وقعت الطائرة في صحراء ليبيا وتمزقت إلى ثلاث قطع وبُعث ياسر عرفات حياً، لم أستغرب أنه في الـ ٢٤ ساعة التي سبقت عودته حياً، لم يبق أحد في قيادة "فتح" إلاّ قال إن هذا الرجل يجب أن توضع له حدود، لا يجوز أن يبقى من دون نائب، كل شيء بيده، المال بيده، القيادة بيده، ربنا ينجيه كي نغيّر هذا الوضع.

لن أذكر أسماء، لكن أقول إن قيادة "فتح" كلها قالت هذا الكلام. رجع أبو عمار بالسلامة، وعقدنا مجلساً مركزياً، وأنا مطمئن هذه المرة إلى أن الناس ستتكلم. مرت عشر دقائق، ودقائق بعدها ولم يتكلم أحد وأنا قاعد بجانبه، ولا أدري لماذا اختارني أن أجلس على المنصة بجانبه. قررت أن أتكلم أنا. ومما قلته له: "يا أبو عمار، شو قلّك ربنا لمّا أخذك ورجّعك؟ هل قلّك شي عن نيابة الرئاسة، عن تداول السلطة، عن، عن؟" وإذ به، للأسف، ينفجر غاضباً. وأنا أقول دائماً إن حادثة الطائرة بدلاً من أن تؤثر فيه نحو الزهد والنسك والإيمان بأن الإنسان فان، فقد جعلته يتصرف كأنه رجل مبارك ومحجوب عنه الشر، وازدادت نزعته إلى التفرد. نعود إلى سلوك قادة "فتح". كيف نفسر هذا الصمت؟! وفي اتفاق أوسلو، كان جزء كبير من القيادة ضد الاتفاق، لكن في المجلس المركزي لم يتكلم أحد باستثناء أبو اللطف، الذي عارض ولم يعترض! أمّا الآخرون المعارضون لهذا التوجه فلم يتكلم أحد منهم، بل وصوتوا إلى جانبه.

أبو عمار، كما قلت سابقاً، كان يحتل موقعاً قوياً في التنظيم. المال بيده، ومتفرغ ٢٤ ساعة على ٢٤ ساعة، بين المقاتلين، بين الميليشيا، بين التنظيم، وطريقة حياته وعيشه جعلته أقرب إلى الناس من أي قائد غيره. الآخرون كان يعطيهم حصة، وكل واحد "كان عامل جهاز"، لكن هذه الأجهزة كانت أشبه بمراكز للقوى. كان أبو إياد يأخذ مخصصاً معيَّناً، أبو اللطف مخصصاً معيَّناً، أبو الهول مخصصاً معيَّناً، وكلهم "عملوا نوعاً من الأجهزة" باستثناء أبو اللطف، الذي كان مسؤول الدائرة السياسية. ولاحِظ أنه ما مات واحد من هؤلاء إلاّ ورث أبو عمار جهازه، وانحل الجهاز، وانتهى. ومعنى ذلك أن المبرر الوحيد لوجود هذا الجهاز كان وجود الأخ التاريخي، فإذا رحل، رحل معه جهازه!!

وهنا لا بد من إشارة ضرورية إلى الشهيد المرحوم خليل الوزير، فهذا كان استثناءً في "فتح". إذ على الرغم مما كان لديه من إمكانات فقد كان سعيداً بدوره مع عرفات، الأمر الذي يذكّر بعلاقة

عبد الحكيم عامر بعبد الناصر في أعوام ثورة تموز/يوليو الأولى.

أحمد خليفة: أشرت إلى العوامل التي مكنت عرفات من الإمساك بكل الخيوط بيده، وذكرت ضمنها سيطرته على المال، الذي أعتقد أنه أدى دوراً حاسماً في تمكين أبو عمار من تثبيت سيطرته وتحجيم الآخرين، سواء داخل "فتح"، أو فيما يتعلق بالمنظمات الأُخرى. في تقديرك، كيف استخدم عرفات هذا المال لتثبيت سلطته وشراء ولاءات؟ وسؤال آخر: لماذا تدفقت عليه الأموال من الدول التي أعطته إياه؟ التزاماً بقضية وطنية؟ اتقاء لشره؟ أم ماذا؟

شفيق الحوت: لا شك في أن أبو عمار كان مدركاً لأهمية المال في تسيير الأمور، وأنا تعلمت هذا الدرس منه. كنت من السذّج الذين يعتقدون أنه يكفي، كي ندخل شخصاً في التنظيم، أو نعبئه للنضال، أن نقعد معه ونملي عليه آراء ثورية مستخدمين كل الوسائل البلاغية والبيانية التي نملكها، بينما كان أبو عمار يؤمن، وهو على حق، بأن الدعم المالي يزيد في الحوافز، وأن من كان في موقعه يتعين عليه أن يفتح كيسه. مثلاً: شخص مهم، مختار عشيرة، فاتح ديوان ويسقي قهوة وشاي طوال النهار، وعنده خمسون أو ستون عائلة تتبع رأيه. شخص مثل هذا كان أبو عمار يحرص على أن يضع في يده شهرياً ألفي ليرة، ثلاثة آلاف ليرة، يشتري بها قهوة وشاي، لأنه يدرك أثر ذلك في أحاديث الدواوين والمجالس المحلية.

أحمد خليفة: العشيرة من الأطراف، أريد أن أعرف ـ

شفيق الحوت: كان يستخدم المال على جميع المستويات، حيث يجب، وحيث لا يجب. بعد سنة ١٩٨٢، بعدما رحلت القيادة وبقيت وحدي مسؤولاً في بيروت، صار يجيء إليّ "ناس بدهم مصاري"، واكتشفت أهوالاً من كثرة من كانوا يقبضون من الثورة. ومرة قلت له، وعن شخص مهم في هذا البلد: يا أبو عمار، هذا الآن يشتمك فهل من الضروري أن تظل تساعده وتؤيده؟ فقال لي: إني أدفع له ويشتمني، فكيف لو توقفت؟ كانت له فراسة قوية، كان يعرف من الذي يُشرى ومن الذي لا يُشرى، ونادراً ما كان يخطئ. كان يقدّر أهمية فلان في الموقع الفلاني، سواء أكان في صحافة، أم في تنظيم ما، أم في حزب ما، وربما في حكومة ما!!

أحمد خليفة: أو داخل "فتح".

شفيق الحوت: طبعاً، طبعاً داخل "فتح". على ذكر "داخل فتح"، اختلف أبو عمار ذات يوم مع جميع أعضاء اللجنة المركزية، بعد سنة ١٩٨٢، أظن بخصوص شأن يتعلق بموقف من الأردن، أو شيء من هذا القبيل؛ اللجنة المركزية كان لها رأي يخالف رأيه، فَحَرِد وراح إلى اليمن، تركهم بين تونس والشام. انشلّت حركة "فتح". أمّا هو فما أوقف نشاطه. زار عشر دول إفريقية في تلك الفترة، وكأنه أراد أن يقول لهم: لا أحد كبير عليّ.

هناك من لا يرى عيباً في مثل هذا التصرف. لكني شخصياً لا أؤمن بأن تقاد حركة وطنية بهذا الشكل، على الرغم من أنه مكّن أبو عمار من الزعامة أربعين عاماً.

أحمد خليفة: نجح بمعنى أنه مكّن عرفات من الإمساك بدفة الأمور في "فتح" وفي الثورة الفلسطينية. وعن طريق هذا الإمساك، ولإيمانه الشديد بالقضية، حقق إنجازات. لكن هذا الأسلوب أدى إلى أنه، بعد ٤٠ عاماً من قيادته للعمل الفلسطيني، لا توجد مؤسسات جديرة بهذه التسمية، ولا يوجد قادة ـ

شفيق الحوت: لأنه ارتكب الخطيئة الكبرى في أن تتميز وتتفرد؛ وهذا يعني أنك أنهيت دور المؤسسة. صفّى مؤسسات كانت موجودة. كان هناك في عهد الشقيري مؤسسات ورثها ياسر عرفات. مركز أبحاث ـ طار! مركز تخطيط ـ طار! وأهم من ذلك أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت تعتز بشفافيتها

المالية في عهد درويش الأبيض، رحمه الله، الذي كان مديراً عاماً للصندوق القومي، وكان هنالك شيء اسمه مجلس الصندوق القومي، ثم بالتدريج أُلغي هذا المجلس وبقي رئيسه، لكن بصلاحيات شكلية فقط. يعني اختزل أبو عمار كل المواقع بيده. هذه هي الخطيئة الكبرى.

أحمد خليفة: إذاً نستطيع أن نقول، بناء على ما سمعناه منك، إن أبو عمار كان هو وحده صاحب القرار، حتى قبل أوسلو. لا أدري لماذا كان يبدو لنا، كمتابعين ومراقبين، أنه كان هناك مرحلتان، مرحلة ما قبل أوسلو، ومرحلة أوسلو وما بعدها وربما ما قبلها بقليل، وكان لدينا الوهم أن عرفات في مرحلة ما قبل أوسلو لم يكن هو وحده صاحب القرار، وأنه كان هناك تنظيم اسمه "فتح" يشارك في صنع القرار، وكان هناك شيء اسمه منظمة التحرير فيها فصائل، وكان هناك نوع من التقييد له، نوع من المشاركة في الإنجازات التي تمت، لكن كما يبدو من كلامك لم يكن الأمر كذلك. وهنا أود أن أسألك: متى أصبح عرفات هو المتحكم الأوحد في القرار؟ بالتأكيد ليس منذ البداية.

شفيق الحوت: كي لا نتجنى على الواقع عند الحديث عن ياسر عرفات وعن القرار الفلسطيني، يجب أن نسأل عن الآخرين، قادة الفصائل، وعن دورهم في صنع القرار. كانت ميزة أبو عمار، و"فتح" بالذات، أنه لم يكن في استطاعة أحد أن يتهمهما بأنهما تابعان لنظام عربي معيّن. كان أبو عمار أكثر حرية في التنقل بين الأنظمة العربية، واستطاع أن يمشي مثل قاطرة سكة الحديد على خطين متوازيين: كان هناك خط جماهيري يمثل قوى شعبية ويسارية ووطنية وتقدمية، وخط ثان هو خط الأنظمة. وكان قادراً على ممارسة التكتيك الكفيل بمنع هذين الخطين من أن يتقاطعا فيرتطم القطار. الآخرون، بعض قادة المنظمات، كانوا ينتقدون عرفات، لكنهم كانوا يجيئون في آخر الشهر لقبض المخصص المالي. للأسف، كل الجبهات التي قامت ضده باسم الرفض والصمود وما إلى ذلك، لم تصمد أمامه.

أحمد خليفة: هنا نصل إلى سؤال أود أن أسمع إجابتك عنه. الثورة حصلت على أموال طائلة من دول "ثورية"، العراق وليبيا، وأيضاً من دول رجعية. لماذا كانوا يعطون عرفات كل هذا المال؟ أعطوا آخرين، لكن في الأساس أعطوا عرفات. هذه الأموال التي كان يتلقاها، هل أثرت في استقلاليته، وفي أي اتجاه؟ أم أنه استطاع أن يأخذها ويتحرك كما يريد؟

شفيق الحوت: ربما لم تؤثر فيه بقدر ما أفسدت الثورة. البترو دولار أساء في رأيي إلى الثورة، مع أن منطق الأمور يقول إن المال يعطيك إمكانات. في الثورات يجب أن تكون الدوافع أكثر من مجرد راتب، كما كان الحال في "فتح" ومعظم المنظمات في البدايات. لكن في النهاية، حتى الفصائل الأُخرى استسلمت للمال. عندما قبلت بنظام "الكوتا" وتقاسم الحصص: خمسة ـ "فتح"، ثلاثة ـ شعبية، اثنان ـ ديمقراطية، واحد ـ نضال شعبي، واحد ـ حزب شيوعي، إلخ.. ألم يرتهنوا بذلك، بشكل أو بآخر، لأبو عمار؟ ارتهنوا أكيد. صحيح كان هناك نوع من الاستقلالية، لكن في النهاية كان عندهم الحرص على رضاء مصدر التمويل، أي ياسر عرفات. وأنا أعتقد أن الأموال أساءت إلى الثورة لأنها أيضاً أوجدت تناقضاً وهيكلية جديدة لم نكن بحاجة إليها وتجلت في لبنان حيث أقمنا شبه دولة، ولم نعد نعرف إن كنا حركة استقلال وطني أو حركة تحرر وطني. ولكل من الحركتين أولوياتها واهتماماتها. نحن في منظمة التحرير كدنا، في فترة من الفترات، نستغني عن وكالة الغوث. ما كان يُصرف من المنظمة على النشاطات الاجتماعية والثقافية والتربوية والصحافية ربما كان أكثر مما كان يصرفه بعض الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية. صرنا جهازاً بيروقراطياً حكومياً أكثر مما كنا جهازاً ثورياً من المفروض أن يكون سريع الحركة يهدف إلى تحرير الأرض، ومن عبر الحدود. فمن هنا أقول إن هذا المال أفسد، وإننا عشنا مرحلة

كان فيها كثير من رموز الثورة الفلسطينية وقياداتها يأخذ من فلسطين ولا يعطي فلسطين. هناك من كان نكرة فصار علماً، وهناك من كان شحاذاً فصار مليونيراً، بسبب الثورة الفلسطينية والبترو دولار الذي حصلت عليه. صرنا نستثمر أموالاً هنا، ونشتري مزارع هناك، ونبني مستودعات هنا، ونفلس هناك. توسعت أطرنا الحياتية بشكل لا يليق بنا كحركة تحرر وطني كما كان من المفروض أن نكون!

التجربة اللبنانية

محمود سويد: ثمة جهات لبنانية تحدثت، بثقة وباقتناع، عن أن أبو عمار خاض الحرب في لبنان وهو يعمل من أجل وطن بديل. هل تعتقد أن مثل هذا قد مر بذهن أبو عمار أو غيره من القيادات الفلسطينية الرئيسية في ذلك الوقت؟

شفيق الحوت: هذا أبتّه بشكل قاطع. لم يفكر يوماً ياسر عرفات، ولا مجمل القيادة الفلسطينية، على الإطلاق في أن يكون لبنان وطناً بديلاً. لكن كان هناك ناس اختلط عليهم الأمر بعد أن أصبح لبنان المرتكز المادي الوحيد لمنظمة التحرير واستطاعت من خلاله أن تعبّر عن نفسها عسكرياً ومالياً وسياسياً وإعلامياً. أبو عمار وسليمان فرنجية طارا من مطار بيروت إلى الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤ دفاعاً عن القضية المشتركة، بل الواحدة، واصطدما بعد ذلك بعام واحد. لماذا؟ لأننا لم ندرك أن هناك حقائق موضوعية على الأرض لا تستطيع أن تتجاوزها، وأهمها أن ابن عمك ممكن أن يتحملك، لكن في النهاية يجب أن تعرف أن هناك حدوداً.

أحمد خليفة: ما دمنا نتحدث عن تجربة الثورة الفلسطينية في لبنان، وهذه استمرت فترة طويلة، ماذا تقول فيما يتعلق بما لنا وما علينا في هذه التجربة، أعني في الجوهر؟

شفيق الحوت: أقول إنه يخطئ من يظن أن كل ما حدث للمنظمة والثورة وبسببهما، في العقود الأربعة الماضية من القرن المنصرم، كان من نتاج قرارات اتخذناها بإرادتنا. فتحركاتنا كانت، في معظمها، ردات فعل لظروف ما كان في الإمكان أن نتفاداها. وهنا ربما نحن بحاجة إلى بضعة تساؤلات نمهد بها قبل الإجابة عن هذا السؤال: هل فكرنا ملياً في إمكان تحرير فلسطين من عبر الحدود؟ هذه استراتيجيا أثبتت التجربة فشلها، وفي النهاية سقطت. وأكثر من ذلك، هل فكرنا في أن يكون لبنان هو المنطلق للتحرير بينما هو أضعف الحلقات بين دول الطوق؟ الجواب لا. فعندما أقمنا منظمة التحرير في سنة ١٩٦٤ كان مكتب القيادة في القدس، وفي سنة ١٩٦٧ سقطت القدس. وكان من الطبيعي أن ترحل القيادة إلى شرقي نهر الأردن، وأن ينتقل مركز الثقل إلى الأردن، حيث يوجد أكثر من مليوني فلسطيني، بالإضافة إلى أن هناك أطول وأقرب خط لدخول الضفة الغربية، إذا أردت أن تدخل ثائراً. استمر الوضع هكذا حتى سنة ١٩٧٠ ثم أصبحنا خارج الأردن، بعدما استكمل النظام الأردني قدراته على تصفية التناقض الذي كان قائماً على أرضه بين الدولة والثورة. طردنا بقوة السلاح، فاتجهنا شمالاً ووصلنا إلى مفترق طريقين: واحد يقود إلى دمشق، وواحد يقود إلى بيروت. دمشق دولة لها جيشها، لها سياستها، لها استراتيجيتها، لها حزبها الذي يقودها. وهي ليست فاتحة حدودها لأي ثائر ومتمرد على ذوقه، ولها ارتباطاتها الدولية، إلخ.. بالإضافة إلى ما كانت تعانيه في السبعينيات جرّاء مخاضات داخلية. فقالت للفلسطيني: قف. فأين المفر؟ اتجهنا نحو لبنان، الذي كثيراً ما قلت عنه إنه كان حديقة من غير سياج، لأن نظامه كان قائماً على سياسة اللاسياسة، وعلى أن قوته في ضعفه،

فكان هناك فراغ سياسي وفراغ عسكري بالإضافة إلى قاعدة شعبية مؤيدة إلى حد كبير؛ فكان الدخول إلى لبنان، والتمركز والانتشار فيه. وإذا كان هناك من يعتقد أنه كان هناك قرارات مسبقة وتصورات وسيناريوهات لمنظمة التحرير، أو لـ "فتح"، أو لأبو عمار، لإقامة وطن بديل في لبنان فهو مخطئ. الظروف هي التي قادته إلى لبنان بحثاً عن مرتكز.

أحمد خليفة: قبل لبنان، كان هناك تجربة الأردن التي أدت إلى نتائج كارثية. وكان من المفروض عندما أتت المقاومة إلى لبنان، وهي خارجة حديثاً من هذه التجربة، أن تناقشها وتحللها وتستخلص دروساً منها كي لا تتكرر الأخطاء، وتتكرر النتائج. لماذا لم تفعل ذلك؟

شفيق الحوت: على الصعيد اللفظي كان هناك بعض النقد الذاتي، وكان هناك اعتراضات كثيرة بشأن التصرفات الفلسطينية في لبنان. وأستطيع أن أقول إننا أثقلنا على اللبنانيين وأتعبناهم كثيراً، مذكِراً بأن فكرة تحرير فلسطين من خارج الحدود كانت، في رأيي، خطأً كبيراً شاركت فيه كل المنظمات، متجاوزة حقيقة أنه كان يتحتم على الفدائي أن يجابه الجندي العربي أولاً كي يستطيع أن يقاتل الجندي الإسرائيلي. ولأريح نفسي وأريح اللبنانيين أقول باختصار شديد: منطق ثورة ودولة على أرض واحدة مستحيل. وحتى لو قلت إنني لن أتدخل في الشؤون اللبنانية الداخلية، فهل من المعقول أن يرضى اللبناني بذلك وأنا ممسك بقرار الحرب والسلم، وهو أهم قرار سيادي لأي بلد؟ عندما أضرب إسرائيل من الجنوب، هل أتوقع أن تقف إسرائيل وتتفرج؟ لقد عرفت إسرائيل كيف تستغل الظرف، فضربت الفلسطيني، وعندما لم يتأثر ضربت جاره اللبناني وقالت له: إمّا أن تطرد الفلسطيني، وإمّا أستمر في ضربك معه. وهكذا تأزم الوضع ووقع الصدام، بدعم من الولايات المتحدة على جميع المستويات. قد تسألني: هل كان ذلك قضاء وقدراً؟ أقول لك: ربما كان قدراً أن يحدث صدام، غير أنه كان يمكن أن نتحايل على القضاء، بمعنى أن نخفف كثيراً من حجم المعاناة والخسائر التي تكبدناها فلسطينيين ولبنانيين.

أحمد خليفة: قبل أن نتجاوز مرحلة ما قبل أوسلو، لديّ سؤال له بعد تاريخي مثير للاهتمام. قلت إن قيادة الحاج أمين الحسيني، وأحمد الشقيري من بعده، كانت لها خصائص معينة، وعندما أتت القيادة الجديدة أملت بأن تكون مختلفة عن القيادة السابقة، و"بنت عصرها"، لكن هذا لم يحدث. استمرت بالتقاليد السابقة نفسها، وربما مع إضافات أسوأ. لماذا؟ الساحة الفلسطينية كانت ملآنة بمناضلين مثقفين ومتعلمين وأحزاب "بنت عصرها"، لماذا لم ينتج من ذلك قيادة مختلفة؟ هل الأسباب عرضية، أم أن هناك بنية مجتمعية معينة تحول دون ظهور قيادة من النوع الذي كنت تتمناه؟

شفيق الحوت: هناك عدة أسباب، ومنها ما هو موضوعي. علينا أولاً أن نتذكر أننا مثل كل الشعوب، فينا الجيد والسيئ وما بينهما. إنما في الستينيات، عندما انطلقت منظمة التحرير، كان واقعنا كالتالي: هنالك من هو في إسرائيل، وأولوياته معروفة ومحددة؛ وهنالك من هو في الضفة الغربية ملحقاً منذ ١٦ عاماً بالأردن، وله تجربته؛ وهنالك إخوتنا في قطاع غزة ولهم تجربتهم مع الإدارة المصرية؛ وهنالك من هم في الشتات ولهم أولوياتهم وهمومهم. الناس كانت مبعثرة جغرافياً، وكان هناك ولاءات كنا مكرهين عليها بسبب خلافات واختلافات الأنظمة المضيفة لنا، وولاءات أُخرى جذرية مختلفة. فالعصر وقتها كان عصر الأفكار الثورية المتباينة: الماوية والشيوعية والغيفارية والناصرية والبعثية والإخوان والنموذج الجزائري. كان هناك غابة من الأفكار السائدة والمنتشرة بقوة بين أبناء الشعب الفلسطيني، الذي كان مسيَّساً أكثر من غيره، لأنه صاحب قضية، ويده في النار، ويريد أن يسترد وطنه على عجل. هذا سبب موضوعي. وأيضاً كان من المستحيل أن تنتخب قياداتك عبر صندوق الاقتراع، الذي هو الوسيلة الديمقراطية الوحيدة لإيصال من تريد إلى القيادة. هذا كان

مستحيلاً. هنا في لبنان، البلد الأكثر ديمقراطية من غيره في الوطن العربي، حاولت، عندما كنت ممثل منظمة التحرير، إجراء إحصاء لعدد الفلسطينيين المقيمين بلبنان، فمنعتني السلطة العسكرية اللبنانية. منعت وكأني كنت أريد أن أرتكب جريمة. وحتى الآن، بعد ٥٥ عاماً على قضية فلسطين، فإننا لا نستطيع أن نحصل على قيادة منتخبة في لبنان، وكذلك الأمر في سورية. أمّا في الأردن، فوضعنا معروف. حتى في أرضنا المحتلة، إذا أردنا أن نجري انتخابات فستكون في ظل الاحتلال. لذلك وصلت القيادات من أبواب موارِبة، وبعضها كان يحمل الولاء لهذه المرجعية أو تلك ويحصل على دعم وحماية منها، ولو لم يكن له أي وزن شعبي حقيقي. وحتى الآن توجد تنظيمات في الساحة الفلسطينية تعتبر نفسها قيادات وهي في الحقيقة، كما يقال، صفر حافظ منزله. ما أريد قوله إنه في غياب السبيل الديمقراطي لإيصال قيادات شرعية حقيقية أمكن وصول قيادات من هذا النوع تركت بصماتها على مجمل الحركة الوطنية ككل.

هذا من ناحية. من ناحية أُخرى، ودعني هنا أخرج قليلاً عن التقليدي في الرد على سؤالك، وأضع بعض اللوم على شريحتين مهمتين من الشعب الفلسطيني: الأولى، المثقفون. هل تعتقد أن المثقفين بادروا، بالزخم وبالإصرار المطلوبين، إلى المشاركة في الحركة الوطنية الفلسطينية، ورُفضوا؟ كثيرون آثروا أن يكونوا على هامش العمل الفلسطيني لا في داخله. أسماء لامعة كثيرة افتقدناها في المجلس الوطني. الإخوة معروفون، وهم من خيرة أبناء الشعب الفلسطيني. والشريحة الثانية، الرأسمالية الوطنية. الفلسطينيون ليسوا كلهم فقراء وكادحين وسكان مخيمات. توجد طبقة من الموسرين وأصحاب المصالح والتأثير في الوطن العربي، في الخليج، في لبنان، في مصر، وحتى في الضفة الغربية وقطاع غزة، أثروا ثراء بلا حدود. وكنت أقول لهم، وأنا أعتبر نفسي ذا أصول يسارية: يا جماعة، أنتم كطبقة حافظوا على حقوقكم، نظموا أنفسكم، حتى إذا صارت لنا دولة يكون لكم دور. البنية الاجتماعية ليست سكان مخيمات فقط، هناك أيضاً الصناعي والتاجر والمقاول، إلخ. ماذا فعل هؤلاء؟ لا شيء. اكتفوا، أو بالأحرى اكتفى بعضهم، لا كلهم، بدفع الجزية فقط، قليل من المال. ومن هنا يصح القول إن القيادة الوطنية الفلسطينية الحالية، أو ما تبقى منها، لا تمثل حقيقة كل شرائح الشعب الفلسطيني وأوساطه.

أحمد خليفة: سؤالي السابق كان عن القيادة، وسمعنا وجهة نظرك. سؤالي الآن عن أبو عمار بالتحديد. أنت تعرفه جيداً، وقد زاملته وعملت معه مدة طويلة، وخصوصاً هنا في لبنان، وكنت تتبع كل شاردة وواردة تتصل بمواقفه وتحركاته السياسية. هل عرفات قبل أوسلو هو، في رأيك، عرفات بعد أوسلو، أم تغير؟ وإذا كان تغير، كيف؟ أطرح هذا السؤال بهذه الصيغة العامة جداً لأترك لك حرية أن تختار ما تقوله أو لا تقوله.

محمود سويد: في السياق نفسه، هل كانت أوسلو نتيجة تطور طبيعي في مسار تطورات القضية الفلسطينية أوصل الثورة بشكل طبيعي إلى مرحلة أوسلو، أم أنها كانت نوعاً من "لعب تحت الطاولة" خارج السياق؟ وفد رسمي يفاوض في واشنطن، وإذ بأوسلو تبرز فجأة. أين تقع هذه في سياق مراحل الثورة الفلسطينية؟

عرفات والتسوية

شفيق الحوت: ياسر عرفات والتسوية. إذا جعلنا العنوان هكذا، فقد تهون الإجابة. عرفات مر بعدة مراحل على طريق التسوية. أول مرحلة ذات أهمية أتت في أعقاب حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣،

التي خرج منها حكام العرب بقناعة تقول إنه ما دامت موسكو وواشنطن موجودتين فلا يمكن حسم الصراع العربي ـ الإسرائيلي عسكرياً. وهنا، بدأ عربياً الحديث عن المشاركة في مؤتمر جنيف في أعقاب حرب ١٩٧٣، الذي دُعينا نحن أيضاً إلى المشاركة في أعماله إلى جانب مصر وسورية. لكن وقتها لم تكن الأجواء الفلسطينية مهيأة لهذه النقلة، مع أن الجميع استشعر أن علينا أن ندرك أن أهم حليفين لنا، وهما سورية ومصر، بدأ يجول في خاطرهما حديث التسوية. وأذكر أن زهير محسن، ممثل الصاعقة في ذلك الوقت، وفي ندوة عقدت وقتها في مركز الأبحاث الفلسطيني، قال، ولأول مرة، العبارة المشهورة أنه انتهى عهد الرومانسية الثورية وعلينا أن نفكر بعقلانية، موحياً بأن النظام السوري لا يمانع في سلوك درب التسوية. وكان القرار الذي انتهينا إليه هو التوجه إلى الأمم المتحدة، بدلاً من جنيف. ذهبنا إلى الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤. وأعتقد أن أي إنسان ذي ذهن صاف ورزين يعرف أن هذا ضمنياً اعتراف بإسرائيل بشكل من الأشكال، لأنك لا تُقبَل كعضو مراقب في الأمم المتحدة إن لم تكن موافقاً على ميثاقها وقراراتها، بل أنت موجود هناك بحكم قرار من الأمم المتحدة، هو القرار ١٨١ الذي قسّم فلسطين إلى دولتين.

إذاً، من حيث المبدأ، ابتداء من سنة ١٩٧٤، منذ يوم تحدث أبو عمار في الأمم المتحدة عن غصن الزيتون والبندقية، بقينا معلقين بالبندقية وغصن الزيتون، هذه باليمين وذاك بالشمال، إلى أن تمكّن التحالف الإسرائيلي ـ الأميركي من ضرب منظمة التحرير الضربة الاستراتيجية سنة ١٩٨٢. يعني ظل أبو عمار يراوح بين حديث سلم وحديث حرب. وعلينا ألاّ ننسى أنه في سنة ١٩٧٨ حدث المحظور الأكبر، وهو خروج مصر عن الاستراتيجيا العربية الموحدة بتوقيع صلح منفرد مع إسرائيل، الأمر الذي رسخ القناعة بأن النضال العسكري أصبح مستحيلاً في غياب مصر. وعلى الرغم من المحاولات الكاريكاتورية التي حدثت فيما بعد لإحياء الجبهة الشرقية، وجبهة الصمود، وكلها فشلت في تعويض خسارة مصر، فقد ازدادت، حتى على المستوى الشعبي، القناعة بأن تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني أصبح موضع شك كبير، أو على الأقل أصبح مشروع أجيال مؤجلاً. أنا من موقعي القريب من أبو عمار، أقول إنه ازداد حماسة وقناعة بنهج التسوية، في سنة ١٩٨٣، بعد رحيله الثاني من طرابلس. يومئذ شعر أبو عمار بأنه لم يعد له موطئ قدم على الحدود مع فلسطين المحتلة، وبالتالي ليس أمامه غير العمل السياسي. وكما تذكرون، قيل وقتئذ إنه في طريق رحيله الثاني إلى اليمن توقف في الإسماعيلية أو في قناة السويس، والتقى أو اتصل بحسني مبارك الذي كان يومئذ مقاطعاً عربياً، ومصر لا تزال خارج جامعة الدول العربية. هذه المرحلة امتدت أعواماً، كان هناك في معظمها مراوحة، إلى أن حدث تحرك ذو قيمة، وهو الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧. فبعد هزيمتنا في لبنان ورحيل قوات منظمة التحرير، أعادت الانتفاضة إلى القضية اعتبارها بزخم مرة أُخرى، واستعادت لقضية فلسطين شعبيتها، بل حصلت على تعاطف كبير على المستوى الدولي، لأن وسائل نضالها كانت جماهيرية ولم تستخدم السلاح، وكانت فعلاً موفقة في إخراجها وفي تنظيمها وفي الشعارات التي رفعتها في ذلك الوقت. ونلاحظ أنه في تلك الأعوام بدأ الانهيار العربي يزداد، وبدأ الاتحاد السوفياتي يتأكل، وصولاً إلى بداية التسعينيات وحرب الخليج الثانية التي كانت هزيمة لكل العرب كما قال جيمس بيكر يومئذ لحافظ الأسد، متناسياً أنه كان لحافظ الأسد ولحسني مبارك جيشان يقاتلان مع القوات الأميركية. ودعا بوش إلى مؤتمر مدريد. وكنت أنا من القائلين بضرورة المشاركة، لأن غير ذلك كان موقفاً عبثياً. مصر موافقة، سورية موافقة، والعراق مهزوم، بل العرب كلهم مهزومون، وساد حديث التسوية على كل حديث. وحتى إخوتنا في الانتفاضة الأولى لم يرفعوا شعارات مستحيلة التحقيق، ولذلك نجحوا. لم ينادوا بتحرير يافا وحيفا وعكا وصفد، إلخ. نادوا بتحرير الأراضي التي احتلت سنة ١٩٦٧. وحتى هذا كان

أقصى شعار، وكانوا أحياناً يطالبون فقط بتحسين أحوال السجناء، وبمطالب ديمقراطية واجتماعية عادية لا يستطيع أحد في العالم إلاّ أن يؤيدها. كذلك كان هناك دائماً ضغط مصري وسعودي، أنا شاهد عليه، يلح على عرفات في أن يوغل أكثر فأكثر في عملية التفاوض السلمي ومساعي التسوية. وفي المقابل، كان هناك في الثورة الفلسطينية والمقاومة من هو ضد الحل السلمي، لمجرد أنه سلمي، وكأن بيده آلة الحرب، وفي استطاعته أن يزيل إسرائيل من الوجود.

على كل حال، جاء مؤتمر مدريد، وصيغة مدريد، والفريق الأردني ـ الفلسطيني المختلط وملابساته. وكان هناك منطق أقرّ به وأدعمه، وهو أن النضال لا بد من أن ينتهي في النهاية حول طاولة المفاوضات، وأن لدينا من الأوراق ما يمكننا من الجلوس إلى طاولة المفاوضات أقوياء معتزين بقدرتنا على إنجاز انتصار سياسي مقبول، إذا تخلينا، طبعاً، عن شعار تحرير كامل التراب. فنحن جئنا على أرضية ما يسمى الأرض في مقابل السلام، والأرض بمعنى ما احتل سنة ١٩٦٧، في فلسطين، وفي الجولان. هنا دخل موضوع الأداء، وهذا من سلبيات ياسر عرفات. الإخوة في الوفد الفلسطيني، المشكل من مفاوضين من الضفة والقطاع برئاسة حيدر عبد الشافي، أبلوا في فترة المفاوضات في واشنطن بلاء حسناً، وحيدر عبد الشافي كان بالذات ضمانة وطنية رصينة، ومن دون ديماغوجيات، ومن دون صوت عال، استطاع أن يضع إصبعه على مكمن الخطر في المفاوضات الإسرائيلية ـ الفلسطينية، عندما لاحظ أنه بينما كان هو والعدو يتفاوضان في شأن كذا قضية تتعلق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي، كان الصهيوني يخلق وقائع جديدة على الأرض من المفروض أنها موضع بحث، أعني: "لا حدود مضمونة، مستعمرات تبنى، أرض تصادر، ممارسات إرهابية، تهويد في القدس، تغيير معالم، إلى ما هنالك من الممارسات الإرهابية المدانة كلها في الأمم المتحدة." فكانت الوقفة مشرّفة في واشنطن، وكان يمكن البناء عليها لو صمدنا وقلنا لا مفاوضات قبل تجميد الوضع على ما هو عليه إلى أن تبت المفاوضات في شأنه. وإذا كنا سلّمنا بأن مستعمرات بنيت في هذا الجزء أو ذاك، فالآن يجب ألاّ يمارس ذلك؛ وهذا أصلاً مخالف للقانون الدولي المتعلق بالاحتلال، ولاتفاقية جنيف التي تمنع أي تغييرات ديموغرافية أو جغرافية في الأرض المحتلة. وبدلاً من الثبات على هذه الوقفة راحت القيادة الفلسطينية تفاوض من خلال القناة السرية في أوسلو. ولا أقبل الزعم الأميركي أن واشنطن لم تكن على علم بقناة أوسلو، بل كانت على علم وتتمنى الوصول إلى اتفاق لا تتحمل مسؤولية رعايته؛ وأصلاً النرويجيون ما كان يمكن أن يتحركوا قبل أن يأخذوا إذناً من واشنطن في أن يفتحوا هذه القناة. ومن سوء حسابات ياسر عرفات، أيضاً، أنه كان خائفاً من قيادة بديلة من أهل الضفة وغزة، فقرر الدخول في قناة سرية. ولو كانت سرية بمعنى العمل النضالي لكان الأمر مقبولاً، لكنها كانت سرية غير نزيهة. فأنا شخصياً، وأنا عضو في اللجنة التنفيذية التي هي القيادة رقم واحد، على الأقل نظرياً، كنت ومعي ثلاثة أو أربعة آخرون قاعدين شهود زور لا نعرف ما يجري، في الوقت الذي كانت المفاوضات تدور تحت الطاولة في أوسلو. فهنا أبو عمار ارتكب خطيئتين كبيرتين: الخطيئة الأولى أنه وقّع اتفاقاً أصبح المرجعية الأولى والنهائية للقضية الفلسطينية بدلاً من الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وأعفى الولايات المتحدة من أية مسؤولية. أمّا الخطيئة الثانية فهي أنه منع المجلس الوطني الفلسطيني، أعلى سلطة سياسية للشعب الفلسطيني، من حقه في تقرير مصير الشعب الذي يمثله.

أحمد خليفة: مطلوب منه إشراك المجلس الوطني في اتخاذ القرار في مثل هذه المسألة المصيرية.

شفيق الحوت: هذا في الحقيقة ما طلبته قبل أن أستقيل من اللجنة التنفيذية. قلت له إنني سأعلق عضويتي في اللجنة، لأنه بلغني أن هناك اتصالات سرية وأن هناك اتفاقاً على الطريق، وهذه أمور يجب

أن نعود بها إلى المجلس الوطني الفلسطيني. طبعاً هو نفى وقتئذ وجود مفاوضات سرية. يعني على الأقل لو كان ناقشها في إطار المجلس الوطني، ولنفترض جدلاً أنه كان هناك تيار راغب في اتفاق ما، لربما كان هذا حسّن من شروطه، لكنه للأسف لم يفعل ذلك. وقد قال لي دبلوماسي نرويجي شارك في محادثات أوسلو، وأصبح فيما بعد سفيراً في دمشق وزارني في بيروت، إنه كان هناك أمور استغربنا نحن النرويجيين كيف أنتم الفلسطينيون رضيتم بها في اتفاق أوسلو. يعني أبو عمار سلّم أوراقه ودفع الثمن قبل أن يوصف له المردود. من سلبيات أبو عمار أنه عنيد. وقد أبى أن يعترف بأنه أخطأ، على الرغم من النهاية المريعة التي أوصله إليها اتفاق أوسلو: سجيناً في المقاطعة في رام الله. كرر عدة مرات: "كلا، لم أخطئ، وأنا على حق." طبعاً، هذا ليس صحيحاً. أولاً، لا يجوز له كفرد أن يتصرف في القضية. هذه ليست قضية تخص عائلة عرفات. هذه قضية شعب. وثانياً، حساباته كانت مغلوطاً فيها. أول خطأ من أخطائه أنه بالغ في الوهم بأن الولايات المتحدة أصبحت صديقة له أو صديقة للشعب الفلسطيني، وأنها بدأت تنهج نهجاً مقبولاً إلى حد ما بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني. انبسط! صدَّق! لم يدرك أن أميركا لم تكن في يوم من الأيام حليفاً لأي حركة تحرر وطني، وأنها ما أنصفت في يوم من الأيام شعباً من الشعوب. وللأسف وُجد في الساحة الفلسطينية كثيرون أيدوه، كل "فتح" تقريباً، باستثناء أبو اللطف، وبتحفظ. الفصائل الأُخرى كشف اتفاق أوسلو أنها معارضة ليست ذات أثر حقيقي، ولم تستطع أن تغير هذا الواقع، باستثناء "حماس" والجهاد حتى الآن. ومن سلبيات أبو عمار ظنُّه أنه يستطيع أن يكون رجل كل الفصول: هو البطل المقاوم، وهو البطل المفاوض. لكن لولا تاريخيته، ولولا أربعون عاماً من عمره أمضاها في الكفاح، لما استطاع أن يطول به المقام حاملاً المتناقضين بيديه.

أحمد خليفة: أعتقد أنه لمّا كان في الساحة العربية كان في استطاعته أن يكون كذلك. لكن لمّا صار في مواجهة إسرائيل وأميركا، وذهب إلى الضفة الغربية مقيداً باتفاقات دولية، لم يعد قادراً على اللعب بالمتناقضات كما كان يفعل في الساحة العربية.

الآن، قبل أن ننتقل إلى ما بعد عرفات وما بعد أوسلو، ألا يوجد ما يمكن اعتباره إنجازاً لأوسلو في مصلحة الفلسطينيين؟ هل كانت كلها سلبيات في سلبيات، وكل ما خلفته أرضاً يباباً؟ هل خانت أبو عمار غريزته كلياً عندما اعتقد أنه يمكن أن ينجم عنها ما هو إيجابي لفلسطين؟

اتفاق أوسلو
هل من شيء يمكن البناء عليه؟

شفيق الحوت: أذكر أنني ذات مرة قلت لأبو عمار ونحن في لحظة صفاء، وفي أجواء المفاوضات قبل أوسلو، لماذا لا تستأجر كوخاً في قرطاج أو في مكان ما، وتترك الإخوان في الداخل يفاوضون، وتكون أنت مرجعاً، يأتون إليك للبركة وللتسليم بصوابية الموقف أو عدم صوابيته؟ ربما كان هذا رأياً رومانسياً، وبالتأكيد ضد مزاج ياسر عرفات، لأنه كان يصر على أن يكون دائماً في الصورة في كل شيء. طبعاً، لم يأخذ كلامي على محمل الجد. لكننا نظلم ياسر عرفات إذا قلنا إنه كان يتصرف من موقع المرتاح. أبو عمار كان يتعرض يومياً، عربياً ودولياً، لضغوط كبيرة سياسية ومالية، ولأُخرى على تحركاته، وملاحقة أنصاره. وكان هنالك موقف عربي سلبي وغير داعم، بل متخاذل، كي لا أقول متآمراً. وكان هناك، فلسطينياً، من يقول له: حارب! قاتل! من دون أن يشير عليه من أين! من لبنان،

طردوه؛ من الجولان، ممنوع على الطير أن يطير؛ الحدود الأردنية مغلقة؛ من سيناء؟! ممنوع. المصادر المالية جففت، وأصبح في وضع لا يحسد عليه، مقيماً بتونس، بعيداً عن شعبه. وهنا أقول إن المواقف تكشف معدن الشخص، والناس معادن. لو كان هناك قائد آخر لاختلف الأمر ربما، لكن هذا ما رآه أبو عمار، وهذا معدنه. وكي يبقى في الصورة اختار أوسلو، وخصوصاً بعد أن صار عنده تماهٍ مع قضية فلسطين، وأصابه شعور بأنه ما دام هو بخير ففلسطين بخير. وهذا وضع نفسيّ قد يساعد أيضاً في تفسير سلوكه.

أحمد خليفة: إضافة إلى هذا الوضع النفسي، ربما فكر على هذا النحو: أذهب إلى هناك، ومن ثم أرى ما يمكن فعله. دائماً كان يفعل ذلك في الأزمات.

شفيق الحوت: عند المصريين تعبير شعبي: "الفهلوي". أبو عمار كان في السياسة "فهلوي"، كان يقول: أعطني موطئ قدم وسترى ما يمكنني فعله. هذه أيضاً من خصاله. لكن أنت سألتني عما إذا كان هناك إيجابيات يمكن أن تسجل لأوسلو. ربما كان هناك إيجابية، مع أنها موضع شك، إلاّ إنه لا بأس من تسجيلها، وهي أن اتفاق أوسلو أدى، فيما أدى إليه، إلى انتقال مسرح العمليات إلى الأرض المحتلة. فمن الصحيح القول إن القيادة كانت دائماً حيث كان أبو عمار، وكان أمراً حسناً أنه انتهى في الأرض المحتلة، لأن هذا أعاد إلى الذاكرة الفلسطينية، وخصوصاً إلينا نحن الذين في الشتات، أسماء كدنا ننساها، القدس وطولكرم وقلقيلية وجنين ومخيم بلاطة ومخيم النصيرات وغيرها وغيرها. ولم يعد النضال من أجل التحرير عبر الحدود من حولا، والهبارية، وعيترون، وكفر شوبا، وكفر حمام، وغيرها من القرى اللبنانية. صار هناك عمل في الأرض المحتلة. قبل ذلك كنا نبدو في نظر العالم كأننا شعب يريد أن يهجم على فلسطين من الخارج، الآن صار نضال الشعب في الداخل وليس "مستورداً"، وصار مسرح العمليات يومياً في القدس ورام الله وقلقيلية وطولكرم وغزة، إلخ. وأعتقد أن هذا شيء مهم، ولا سيما في هذه المرحلة من الانحطاط العربي. انتقال مسرح العمليات إلى الساحة الفلسطينية شيء مهم لأنه أجبر الإسرائيلي على مواجهة القضية الفلسطينية مباشرة، لا من خلال شاشة التلفزيون. وهذه إيجابية ثانية كان لها تأثيرها المهم في الرأي العام اليهودي في إسرائيل. ولا بد من الإشارة إلى أن هذه النقلة ساهمت في تعزيز صمود الشعب في وطنه، وفي الحفاظ على البعد الديموغرافي كعامل مؤثر في تحديد مصير إسرائيل.

أحمد خليفة: هل تعتقد إيجابية أيضاً أنه صار هناك كيان سياسي، ومهما نصفه بأنه هزيل وغير مكتمل، إلاّ إنه كيان على الأرض الفلسطينية، معترف به دولياً؟ هل تعتبر هذا الكيان الذي ولد إيجابية؟ كذلك المؤسسات التي ظهرت، مثلاً المجلس التشريعي، بغض النظر عما إذا كان أبو عمار عطله أو لم يعطله، وأنه جرت هناك انتخابات تشريعية ورئاسية لأول مرة في تاريخ الشعب الفلسطيني. هل يمكن تسجيل هذا كله لمصلحة أوسلو، أم أنه أمور ليست مهمة؟

شفيق الحوت: تقول إنه جرت انتخابات، أية انتخابات هذه في ظل الاحتلال الإسرائيلي وتغييب نصف شعب فلسطين المقيم بالمنافي عن قول كلمته في تقرير مصيره؟

أحمد خليفة: كنت أتحدث عن الانتخابات السابقة. سنصل إلى ما بعد عرفات لاحقاً. كنا نعدد ما يمكن أن يسجل لأوسلو: صار مسرح العمليات في الضفة؛ صار هناك كيان سياسي، ربما على رمال متحركة، لكنه معترف به دولياً نوعاً ما؛ جرت انتخابات؛ ظهر مجلس تشريعي؛ وعرفات أيضاً أخذ شرعية من الانتخابات إضافة إلى شرعيته الثورية السابقة.

شفيق الحوت: هذا جيد، لكن ـ

أحمد خليفة: ما على أوسلو وأبو عمار كثير، وما أحاوله الآن هو أن نرى فيما إذا كان هناك إيجابيات

نجمت عن أوسلو.

محمود سويد: هناك إيجابية أُخرى: صار هناك مجتمع فلسطيني، ولم نعد نتحدث عن مدن متفرقة، نابلس وجنين ورام الله. لقد تشكل مجتمع تتوفر فيه كل المقومات: جامعات، ومؤسسات ثقافية، ومراكز أبحاث، وقوى المجتمع المدني، إلخ. وإلى أن مارس شارون التدمير الكارثي في هجمة سنة ٢٠٠٢، بل على الرغم من حملة التدمير المستمرة، يعبر هذا المجتمع عن نفسه أمام العالم بحيوية ظهر معها وكأنه فعلاً نواة لدولة.

أحمد خليفة: أضف إلى ذلك الوحدة السياسية بين الضفة الغربية وقطاع غزة. قد يكون كل هذا عابراً، والأرجح أن يكون كذلك، لكن نسجله كي نرى عندما ننتقل إلى مرحلة ما بعد عرفات ما إذا كان هناك ما يمكن الاستناد إليه لمواصلة النضال، ما هو جدير بأن نثبته ونبني عليه.

شفيق الحوت: التاريخ، كما تعلم، دائماً يحوي التناقضات، وكل مرحلة تفرز إيجابيات وسلبيات، والحكمة القيادية هي أن تحدد المعطيات الجديدة التي يمكن أن تستفيد منها وتطورها. أداء سيئ يمكن أن يسيء ويخرّب، وأداء جيد يمكن أن يطور ويحسّن. لكن يجب ألاّ نغالي. كان هناك بنية تحتية في الضفة الغربية وقطاع غزة قبل أن يجيء إليهما ياسر عرفات، ولم تكن السلطة الفلسطينية هي التي أنشأت هذه البنية التحتية.

أحمد خليفة: نحن نتحدث عن الكيان السياسي.

شفيق الحوت: هذا الكيان السياسي ما زال، كما قلت أنت، قائماً على رمال متحركة، وأكاد أقول في حفرة يوشك أن يختنق فيها، وما عدنا نعرف إذا كنا حركة تحرر وطني أم حركة استقلال وطنية!! وهذه السلطة اسمها مناقض لحقيقتها. هل يستطيع محمود عباس أن يذهب، مثلاً، من رام الله إلى غزة من دون إذن إسرائيلي، هو أو غيره من رموز السلطة وأصحاب الألقاب الوهمية؟ لا يستطيعون أن يستوردوا قلم رصاص من الخارج إذا قالت إسرائيل "لا"، وإذا سمحت فقد تحدد مصدر المنشأ الذي يجب أن يشتروه منه. نحن بالغنا في تصوير الأمور للناس، وهذا خداع ذاتي. سمّينا معالي الوزير، ورئيس الحكومة، وفرشنا السجادة الحمراء، ودقت "المزيكة" معزوفات الاستقبالات والوداعات. والآن أُضيف الضريح، يريدون أن يعملوا مثل لينين. أبو عمار كان يهمه الشكل، على أمل أن يفرض المحتوى فيما بعد. لكن ماذا عن الثمن الذي دفعه؟ كي تقوم دولة فلسطين يجب تصفية الاحتلال أولاً وقبل أي شيء. اليوم، ونحن نسجل هذا الحديث، نسمع كلام التعجيز من بوش، الذي يقول إن جوهر المشكلة هو في قيام الديمقراطية الفلسطينية! أمّا أين وكيف فهذا مؤجل! والشعب الفلسطيني بلا أرض، بلا هوية، تحت الاحتلال، خط الفقر رقم قياسي. هذا عهر ما بعده عهر. بوش يعرف أن المشكلة هي الاحتلال الإسرائيلي. ينتهي الاحتلال تنتهي المشكلة. والشعب الفلسطيني قادر على أن يقود نفسه أفضل من كثير من الدول العربية التي تتحالف الولايات المتحدة معها.

ما بعد عرفات
توقعات وأمنيات

نأتي إلى قيادتنا الحالية. ورطتني يا أحمد، لكن سأتكلم. أنا أشعر بأن المسؤول الأول في قيادتنا الرسمية الحالية لا يقول الصدق عندما يتكلم عن حق العودة. وأنا أعرف الأسباب التي تجعله يفعل ذلك، وأعرف أيضاً موقفه الحقيقي، لكن ألا يفكر هذا المسؤول في تبعات هذا الموقف وتداعياته على الملايين من فلسطينيي الشتات؟ ماذا نفعل في لبنان غداً؟ نحل مشكلة إسرائيل، ونخلق مشكلة للبنان

وفلسطين؟! أريد كلاماً مقْنعاً. نحن تنازلنا عن أرض ١٩٤٨ في مقابل دولة فلسطينية على أرض ١٩٦٧، وجزء من القدس عاصمة لها. وأعتبر أن هذه محطة يمكن القبول بها، ولا تحرم الجيل المقبل أن يكمل المشوار بعد أن حافظنا له على هويته وعلى منطلقاته، وهو للزمن والتاريخ وحظه. إنما ما هو مطروح الآن استسلام كامل. كلام الإسرائيليين وكلام بوش لا يوحيان على الإطلاق بأنهم جادون في إيجاد حل. لو فرضنا جدلاً أنه صدر غداً تصريح عن بوش يقول فيه إن الولايات المتحدة تتعهد بأن تعمل، خلال الأعوام الخمسة المقبلة، على إقامة دولة فلسطينية مستقلة على كامل أراضي فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشرقية، ويتم الاعتراف للشعب الفلسطيني بحقه في العودة وبحقه في إقامة النظام الذي يريده، في مقابل صلح دائم مع إسرائيل، فإني أعتقد أن الفلسطينيين سيقبلون بهذا الحل ويوقفون القتال.

أحمد خليفة: كانوا مستعدين لذلك في كامب ديفيد، لكن الإسرائيليين لم يقبلوا.

شفيق الحوت: لأنهم كانوا كذابين في كامب ديفيد كما كانوا في أوسلو.

محمود سويد: عودة سريعة إلى مرحلة ما قبل بوش وشارون. هل صمود عرفات في كامب ديفيد، على الرغم من المحاصرة والضغوط الأميركية والإسرائيلية التي مورست عليه، وضع حداً للتنازلات لا يستطيع أحد أن يتجاوزه، سواء محمود عباس أو غيره، وإذا فعل يصنف بأنه خائن للقضية؟ هل نستطيع أن نحسب هذا لعرفات؟

شفيق الحوت: لا شك في ذلك. أنا سمّيت أبو عمار رجل الخطوط الحمر، والوحيد القادر على توقيع الحل الأدنى.

أحمد خليفة: إذاً هذا، أيضاً، يقع في خانة ما له في مرحلة أوسلو.

شفيق الحوت: طبعاً، نسجلها له. لكن الثمن كان فادحاً.

أحمد خليفة: وهذا، بعبارة أُخرى، ما يمكن تسميته "ميراث عرفات"؛ وهو عبارة باتت تتكرر يومياً على لسان كل واحد من المتنافسين بشأن القيادة: سألتزم ميراث عرفات، سأكمل خط أبو عمار، إلخ. طبعاً البعض يقولها صادقاً، والبعض يقولها نصباً واحتيالاً. لكن مثلما قال محمود، ننتقل الآن إلى ما بعد عرفات. ما نريده هنا هو إلقاء نظرة إلى الساحة الفلسطينية حالياً. أوسلو انتهت، لم يعد هناك شيء اسمه أوسلو بمعناها الأصلي.

شفيق الحوت: توجد خريطة الطريق.

أحمد خليفة: هذا صحيح، لكن هذه شيء آخر. إنما نشأ عن أوسلو واقع فلسطيني جديد، جزء منه أرض فلسطينية محتلة وأرض غير محتلة، أو ربما شبه محتلة، وجزء منه مؤسسات فلسطينية وقيادات تحاول أن تثبت وضعها وتكتسب شرعية وأن ترتب الوضع الفلسطيني، وفي الوقت نفسه تبحث عن سبيل للعودة إلى طاولة المفاوضات. وهناك ضغوط عربية، وضغوط أوروبية ـ كيف ترى المشهد الفلسطيني وأنت تطل عليه من بيروت؟ ما هو تقويمك لما يجري؟ أين الصح وأين الغلط فيما يجري؟

محمود سويد: أود أن أضيف إلى هذه التساؤلات شيئاً كي تشمله الإجابة. في هذا الوضع العربي المشلول، هل يستطيع الشعب الفلسطيني وحده، كما يتصور البعض، بنضاله وإمكاناته، أن يحقق تسوية تتضمن دولة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وعاصمتها القدس، أم أنه حتى هذه التسوية هي مسألة تفوق قدرات الشعب الفلسطيني وإمكاناته، وتقع في نطاق الصراع العربي ـ الإسرائيلي الذي يحتاج إلى إمكانات عربية كبيرة أيضاً؟ رأينا في الأعوام الأربعة الماضية نموذجاً رائعاً للقدرة على الصمود والاستمرار في فلسطين، لكن هل يكفي ذلك

لتحقيق الدولة؟

أحمد خليفة: وأرجو أيضاً أن أسمع رأيك، وأنت تتحدث عما يسمى ترتيب البيت الفلسطيني، في الخطوات التي تمت حتى الآن: توزيع المناصب؛ الانتخابات المقرر إجراؤها؛ الشخص الذي تم اختياره ليكون رقم واحد؛ اقتراح تشكيل قيادة مصغرة تضم جميع القوى؛ هل هذه ممكنة أم غير ممكنة؟ المطالبة بإحياء منظمة التحرير وتفعيلها، هل يمكن إحياؤها أم أنه عفّى عليها الزمن؟ كل هذه الأمور، وما شابهها.

شفيق الحوت: القضية أمامها ثلاثة احتمالات: إمّا حل، وإمّا تسوية، وإمّا استسلام. شخصياً، أرى أن الحل مؤجل لأن لا حل لقضية فلسطين إلاّ بدولة ديمقراطية واحدة يتعايش فيها الجميع من دون تمييز وأيديولوجيات عنصرية، وإلاّ سيبقى الصراع قائماً. الحل يتطلب صراع أجيال. نقرأ الحروب الصليبية ونأخذ العبرة ونستخلص الجواب.

أمّا التسوية فهي استمرار للنهج الذي اتبعناه في الماضي. منذ سنة ١٩٧٤ حتى اليوم ونحن في اتجاه التسوية، ونفاوض من دون أن نكسب. أنتما تعرفان كم سنة مضت حتى قبلنا بالقرار ٢٤٢، وكم سنة مضت حتى وصلنا إلى إعلان الاستقلال في سنة ١٩٨٨ في الجزائر. والقيادة الفلسطينية إجمالاً حاولت، وما زالت تحاول، إيجاد تسوية ما على حساب جزء من التراب الوطني الفلسطيني، وهو جزء كبير ومهم: الأرض التي احتلت سنة ١٩٤٨. لكن في الجهة المقابلة، وأتساءل الآن من موقع رجل حيادي، ما هو المشروع البديل الذي قدمته إسرائيل أو الولايات المتحدة لحل القضية الفلسطينية؟ وخريطة الطريق لا تعد بشيء سوى تصفية المقاومة. زارني في أعقاب رحيل الأخ أبو عمار دبلوماسي أميركي هنا في بيروت للاستفسار عما بعد عرفات، فقلت له: خسرتم الشخص الوحيد في الشعب الفلسطيني الذي كان من الممكن أن يمشي في تسوية غير عادلة، لكن مقبولة، وأن يقنع الناس بها. الآن لا يوجد أحد يملك القدرة، أو الجرأة، على أن يوقّع حتى مشاريع ياسر عرفات نفسه. التسوية المشرّفة مرفوضة إسرائيلياً، ولم يبق للفلسطينيين ما يعطونه. أنا لا أعرف كيف يمكن للأخ محمود عباس، أو الأخ أبو علاء، أن يستمرا في نهج التسوية كما كان الحال قبل رحيل عرفات! الرئيس الراحل، بما كان له من كاريزما ومن شخصية، استطاع أن يمد في أجل هذا النفق وهذا النهج الميئوس منه. لكن ماذا يستطيع محمود عباس، أو غيره، أن يفعل؟ أن يتنازل عن القدس؟ هل يقدر؟! لا يقدر. هل في استطاعة أي فلسطيني أن يقبل بدولة فلسطينية هي ٢٢٪ من الأرض التاريخية، وفيها كذا ألف مستوطن يهودي، وكذا مستعمرة يهودية؟ وهذا أيضاً مستحيل. إذاً، ماذا بقي للمسؤول الفلسطيني كي يتنازل عنه في إطار ما يسمى التسوية؟ المطروح، للأسف، استسلام، وبدأت الأمور تتضح أكثر. لقد حولوا عرفات من صديق للبيت الأبيض وشريك لرابين وبيرس في جائزة نوبل إلى شريك غير صالح للمفاوضات لأنه "إرهابي"، وهم يطلبون تفكيك البنى التحتية للمنظمات "الإرهابية". وما إن رحل عرفات حتى نزل السقف أكثر: يجب أن تغيَّر البرامج التعليمية منذ الآن. والمؤلم أن أبو مازن، الذي رد عليهم بأن هذه عملية متبادلة، أصدر بعد أسبوع قراراً بإيقاف التحريض الإعلامي. هل سيحصل محمود عباس على ما لم يستطع أبو عمار أن يحصل عليه؟ ما هو المطلوب بعد؟ وهذا ينقلنا إلى ما سيحدث. ما سيحدث، بالنسبة إلى المفاوضات، هو أننا سندخل في مرحلة عرفاتية من دون عرفات، سيثبت فيها لمحمود عباس ولأبو علاء ولكل أصحاب هذا النهج أنهم أمام شروط لا يستطيعون تلبيتها لأنها تعني الاستسلام الكامل. كما سيثبت لهم أن الشعب الفلسطيني لن يقبل بما هو دون ما يسمى اليوم الثوابت الفلسطينية. وأقول هذا وأنا مقدر، ومن دون أوهام، أن الشعب الفلسطيني متعب، وقد عانى ما عاناه في عهد أوسلو من قضم للأرض، وسلب للحرية، وقلع للأشجار، ونسف للبيوت، وغير ذلك من الممارسات الإرهابية. وما استطاعه عرفات من تمديد، وما كان يرضى به الناس منه، لا يستطيعه

أحد غيره. محمود عباس لا يقدر أن يؤجل ويؤجل ويؤجل، أو يتنازل ويتنازل ويتنازل، وسيثبت له أصلاً أن لا "فتح" سترضى بذلك، ولا الشعب الفلسطيني سيرضى. وهنا قد تسألني: بعد أن يثبت ذلك، وتتضح الأمور، ماذا سيحدث؟ وجوابي أننا سنحيا ونقاوم بشكل أو بآخر.

وبالنسبة إلى الوضع الداخلي، ستستمر المرحلة العرفاتية من دون عرفات، لكن إلى حين. لماذا ستستمر؟ لأن قسماً كبيراً من الجسم الفلسطيني، ولا سيما المعني بالقضية الفلسطينية، مرهون بالصيغة التي كان ياسر عرفات يسيّر الأمور بموجبها، ولا سيما على صعيد المعيشة والحياة اليومية ومختلف المواقع السياسية والتنظيمية والنقابية والهيئات الشعبية، التي كانت كلها مركبة وفق هذه الصيغة. الآن راح ياسر عرفات وهناك كثيرون راغبون في أن يبقوا على الصيغة من أجل مصالحهم. لكن لن يكون ذلك سهلاً، ورويداً رويداً سيبرز في "فتح" نفسها أكثر من مرجع. أعطيك مثلاً يظهر الفارق بين عرفات والورثة. عرفات رفع صورة مروان البرغوثي وتصور معها، وهذا يعني أنه كان عنده شعور بالثقة والقدرة على الاستيعاب، وكان قادراً على ذلك. اليوم مروان البرغوثي يزعج اللجنة المركزية في "فتح" وهو في السجن، وله أنصاره ورفاقه الكثيرون. بعد غياب ياسر عرفات، بعد غياب رقم واحد، صار أي شخص في "فتح" يطمح إلى أن يكون رقم واحد، أو إلى أن يُظهر موقعه وقدرته في الساحة. وقد يكون مهماً مراقبة جهود شباب مثل دحلان والرجوب وغيرهما. أكثر من ذلك، أعتقد أن الفصائل والقوى والأحزاب الفلسطينية تنفست مع رحيل ياسر عرفات الصعداء، صارت تشعر بأنها تستطيع ممارسة نضالها بشكل غير مجامل وأكثر فعالية. في عهد عرفات، هل كان هناك أي جبهة تجرؤ على أن ترشح أحداً لانتخابات الرئاسة؟ الآن هناك صحافية في وكالة الأنباء الفرنسية لم نسمع باسمها من قبل مرشحة لهذه الانتخابات!! صار هناك شعور عند الناس بأن هذه الوحدانية، سياسة الكواليس الفتحاوية التي اعتدناها في عهد الراحل أبو عمار، لم تعد واردة بعد رحيله.

إسألني ماذا تتمنى؟ لأننا لن نترك وشأننا، ولأن المصالح ستتضارب، والدسائس ستستمر، والضعف والتآكل سيزدادان، أتمنى ـ قبل كل شيء ـ إعادة الروح إلى المؤسسات الفلسطينية، وعلى رأسها منظمة التحرير. ولا أقول ذلك لأني من مؤسسي المنظمة، وبالتالي عندي عشق تاريخي لها، لكن لأني لا أرى بديلاً منها، ولا سيما أن لها إنجازات ومكاسب معترفاً بها دولياً وعربياً. هذا البناء المعنوي لا يجوز أن نتنازل عنه، ولا بد من إحياء منظمة التحرير. "فتح" بحاجة إلى وقت كي تعيد ترتيب بيتها، ولا تؤخذ بأنهم وزعوا الإرث بهذه السهولة وبهذا اليسر. كلا، "فتح" لا يزال فيها مشكلات. توجد لجنة مركزية فيها شواغر، وخلال عشرين عاماً لم تستطع أن تجري انتخابات؛ ويوجد مجلس ثوري يطالب باجتماعات؛ وهناك مؤتمر عام يجب أن يعقد. ومن هنا، فإن صيغة "فتح" ما بعد ياسر عرفات قد تشهد تغييرات دراماتيكية، وأي تغيير في "فتح" سيعكس نفسه بالضرورة على الساحة الوطنية ككل.

وبالتالي، أعتقد أنه بانتظار إعادة ترتيب البيت الفتحاوي، وبانتظار تطوير منظمة التحرير الفلسطينية، وبانتظار تحديد صلاحيات ومسؤوليات ما يسمى السلطة الفلسطينية، وبانتظار تحديد العلاقات بين هذه الأطر الثلاثة التي كان الآمر الناهي فيها كلها ياسر عرفات، بانتظار كل ذلك أعتقد أن الحل المثالي حالياً، على الأقل لعام من الزمن إن لم يكن أكثر، هو أن يجتمع إخوتنا في "فتح" وبقية الفصائل، وخصوصاً "حماس" والجهاد الإسلامي، ويشكلوا قيادة طوارئ تكون هي صاحبة القرار الوطني. مثلاً، تعيين أبو مازن رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، هذا قرار لا يُتخذ بهذه السهولة، ومع ذلك لا أحد انتقد، لا أحد قال: كيف، ولماذا؟ هناك أمور كثيرة يجب أن يعاد النظر فيها ويوضع حد للمزاجية. فهذه القيادة تكون مهمتها أن تعطي مؤشرات للسلطة الفلسطينية كيف تقود الساحة الداخلية، وتضع برنامجاً سياسياً يحدد العلاقات بين منظمة التحرير والسلطة و"فتح" وبقية

فصائل الثورة. وتلافياً لخطر، الكل يبدي قلقاً تجاهه، خطر التقاتل الأهلي بين من هو مصر على متابعة الكفاح المسلح وبين من هو مصر على إلغائه ومتابعة الخط التفاوضي، يتوجب علينا أن نتوحد، ويجب ألاّ نستثني أي فريق على الإطلاق. وعلى الجميع واجب الالتزام بأن القرار الوطني الفلسطيني ليس حكراً على تنظيم، أو على فرد. لا يجوز لأي تنظيم فلسطيني مهما يكن حجمه، سواء أكان حركة "حماس" أم "فتح"، أن ينفرد بقرار يعكس نفسه على مجمل القضية الفلسطينية. ما هو دون القرار الوطني، دون القرار المصيري، الكل أحرار في أن يعملوا ما يشاؤون. يتشاجرون بشأن البلديات، يتشاجرون بشأن أي شيء، بشأن نوعية النظام في المستقبل، لا مانع على الإطلاق. لكن علينا أن نؤمن بضرورة وجود كل المنظمات الفلسطينية في إطار يكون هو صاحب القرار الوطني الملزم لكل الفرقاء، بما في ذلك مسألة الكفاح المسلح، وهذا الأسلوب أو ذاك من أساليب النضال. وأنا أعتقد أن الكفاح المسلح، كالنضال السياسي، كالنضال الإعلامي، هو وسيلة لتحقيق هدف، وليس مبدأ مقدساً؛ هذه مسألة تقع في إطار التكتيك لا في إطار الاستراتيجيا، ولا بد من التفاهم بشأنها، ولا بد من أن يُترك للقيادة أن تقرر هل الوقت مناسب للقتال، أو لهدنة في مقابل كسب معين؟ وكما كانت تقول العرب في الجاهلية، الحرب سجال وكر وفر. أعتقد أن الحل ممكن.

وأختم بالقول إن هناك أمراً مهماً جداً قد لا يدركه الشخص العادي، وهو ضرورة إعادة تحديد العلاقات بين السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية، هذا كي لا ننسى أن هنالك نصف الشعب الفلسطيني يعيش في الخارج ولا بد من أن يشارك في القرار بشكل أو بآخر. عشرة أعوام نحن لم نشارك في القرار قط. أبو عمار كان يمُون على الداخل والخارج. الآن، لا يوجد أحد يمون. الآن، الخارج له مخاوفه، وأنا شخصياً كلاجئ فلسطيني في لبنان، لأول مرة أستشعر خطورة مصيري في لبنان إذا ما أقدم المسؤول في الداخل على التنازل عن حق العودة في نهاية المطاف!!

أحمد خليفة: في النهاية، نضم صوتنا إلى صوتك، ونقول إننا نأمل بأن يشكلوا قيادة مصغرة، أو قيادة طوارئ، قبل الانسحاب الإسرائيلي من غزة في إطار خطة الفصل، لأن هناك جملة من الأمور يجب الاتفاق عليها فيما لو حدث الانسحاب فعلاً. من سيحكم قطاع غزة؟ وكيف ستدار الأمور فيه؟ وبالتأكيد، إذا لم يتم الاتفاق قبل الانسحاب على قيادة مصغرة فيها "حماس" والجهاد الإسلامي، فإن ضغوطاً هائلة ستمارس على القيادة الفلسطينية الجديدة لا من أجل عدم تشكيل قيادة مصغرة فحسب، بل أيضاً من أجل تجريد "حماس" والجهاد وغيرهما من السلاح، وتفكيك بنية المقاومة التحتية. وإذا انزلقت القيادة الجديدة في هذا المنزلق سيتعرض القطاع لمخاطر كبيرة.

شفيق الحوت: ذكّرتني الآن بالعلاقة بين الضفة والقطاع، وهذه في حد ذاتها تحتاج إلى عشرين أينشتاين فلسطيني كي يضعوا الخطط للمحافظة على هذه العلاقة الوحدوية فلا يحدث الانفصال بينهما. وعلينا ألاّ ننسى أنه لا يوجد اتصال جغرافي، لا يوجد ممر أرضي، وقد يُغرى أو يُضطر أحد الطرفين في ظروف معينة، وبسبب عدم التواصل بينهما، إلى الانفصال. وربما يكون هذا أحد أحلام مشروع شارون للانسحاب الأحادي. أهل غزة، إذا أرادوا، يتمددون جنوباً في سيناء، وأهل الضفة يذهبون شرقاً إلى الأردن، وتنتهي القضية الفلسطينية. ■